

9

قصص الصحابة

الراوي
الأمم

سلوى العناني

دار اللطائف
للطباعة والنشر

الراعي الأمين

(عبد الله بن مسعود)

[أخذتُ من فَمِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبعين
سورةً لا يَنازعُني فيها أحدٌ] عبد الله بن مسعود

كان الوقتُ ضحىً وقد اجتمع سَلَةُ قريشٍ ، ووجهاؤها
حول الكعبةِ في مجموعاتٍ تَتناقشُ في أمورٍ تجارتها ،
وميلاتها ..

لقد اطمأنوا إلى أن العبيدَ ، والخدمَ قد خرجوا إلى
المراعي ، يدفعون أمامهم الإبلَ ، والأغنامَ .. كما اطمأنوا
إلى أنَّ هناك من الإماء من يقمن على خدمةِ الدورِ ،
وسيداتِ البيوتِ ...

جاء هؤلاء كما هي العلةُ يجلسون معاً ، للمشورةِ ،
والحديثِ ، وقبل أن يَأخذ كلُّ منهم مكانه متوجهاً إلى صنمه
يقدم له التحيةَ ، ويسأله العونَ ، والتوفيقَ .. نَعَمْ .. فقد كانَ
لكلِّ مجموعةٍ صنمٌ خاصٌ بها .. وأحياناً أخرى يكون لكلِّ



مسألة صتم ..

فهذا الصتمُ يسألونه الرِّيحَ الوفيرَ ..

وذاك يتوسلون إليه ، كي يشفى مريضاً ..

أما الثالث فإنهم يقدمون له القرايين ، كي تُنجب
نساؤهم ذكورا ، يكونون عوناً لهم وسنداً ..

وبينما كان هؤلاء السلة جُلوساً يتناقشون ،
ويتصالحون .. إذا بصوت يرتفع بقراءة غريبة :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .. الرَّحْمَنُ .. عَلَّمَ الْقُرْآنَ ..
خَلَقَ الْإِنْسَانَ .. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ .. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾

[الرحمن : 1- 5]

والتفت الجميعُ إلى مصدر الصوتِ متعجبين . إنه هذا
الفقيرُ النحيفُ القصيرُ القامةُ .. وتلألأ سلةُ قريشِ نظرةً
تعجبٍ ، وهم يتساءلون : أليس هذا شيئاً مما يقوله عممداً ،
ويدعى أنه قد أوحى إليه من السماء ..

ومضى الفتى يقرأ رافعاً صوته :

﴿وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ.. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ.. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ.. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : 6 - 9] .

وقام الجمعُ إلى الفتى يضربون وجهه ، ورأسه وجسمه ،
وهو ماضٍ في قراءته لا يقطعها حتى غلبوه ضربا ففرّ منهم
راجعا إلى أصحابه .. وما إن دخلَ عليهم حتى أسرعوا
بمسحون جروحَه ، ويفسلون ما سأل من قَبِه ، وقالوا له :
هذا الذي خشيناه عليك .

فرد عليهم (عبد الله بن مسعود) :

بأنه يتمنى أن يعود إليهم فيسمعهم من القرآنِ ما يشير
غضبهم مرة أخرى .

فمن هو (عبد الله بن مسعود) وكيف دخلَ الإسلامَ ؟..

وكيف كان لقاءه الأول بالرسولِ (عليه الصلاة
والسلام) .

كان (عبد الله) غلاما أجيرا يرعى غنمَ واحدٍ من سُلَمَ

قومش في أطراف مكة .. وبينما هو جالسٌ يوما يراقبُ
اغنامه مرُّ به النبيُّ الكريم ، ومعه صاحبه الصديقُ (أبو
بكر) فطلبا منه بعض اللبنِ ورفضَ الغلامُ أن يسقيهما
قائلا : إني مؤمنٌ ولست سائقكما ..

يا لأمانة الفتى !!

فطلب منه النبيُّ أن يأتيه بشاةٍ ليس فيها لبنٌ .. ومسحَ
النبيُّ على ضرعها ، فامتلا لبنًا ، فحلبه ، وشرب ، ومعه أبو
بكر ، وكذلك الفتى الذي تعجب عما رأى وانبهر ..

فسأل (عبد الله) محمدًا أن يعلمه بعضَ هذا وقد ظنّه
مبحرًا. فقال له النبيُّ الكريم : "إنك غلامٌ مُعَلَّمٌ " .

وتبع (عبد الله بن مسعود) النبيُّ ، وأعلن شهادته أمامه ،
ليكون سائسَ من يدخل في دين الإسلام .

هكذا تحول مصيرُ الفتى الأمين الذي رفض أن يفرطَ في
بعض اللبنِ المملوكِ لسبيهِ ..

وبعد أن كان أجيرًا يورعُ الغنمَ ، أصبح أكثرَ المسلمين

عَلَّمَا بِالْقُرْآنِ ، وَالسُّنَّةِ وَالْفَقْهِ ..

وَقَدْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. حَتَّى قُلَّ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ : قُلْتُ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِذْنُكَ عَلَيَّ أَنْ يُرْفَعَ الْحِجَابُ وَأَنْ تُسْتَمِعَ سَوَائِي حَتَّى أَنْهَكَ) .

وَقَدْ الصَّحَابِيُّ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ مَكَانَةِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنَ النَّبِيِّ (إِنَّهُ كَانَ لِيَدْخُلَ إِذَا أَحْبَبْنَا وَيُشْهَدُ إِذَا غَبَا).

وَيَقُولُ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى : لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَرَى إِلَّا ابْنَ مَسْعُودٍ مِنْ أَهْلِهِ ..

فَقَدْ لَازَمَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ) النَّبِيَّ الْكَرِيمَ وَلَمْ يَكُنْ يَفَارِقُهُ .. وَكَانَ يَحْفَظُ كُلَّ مَا يَسْمَعُهُ مِنْهُ خَاصَّةً الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حَتَّى أَوْصَى الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ أَنْ (تَمْسُكُوا بِعَهْدِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ) أَيِ (عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ) .. كَمَا أَوْصَاهُمْ أَنْ يَحْكُوا قِرَاءَتَهُ ، وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ كَيْفَ يُتْلَى الْقُرْآنُ ؟

وفي الحديث الصحيح :

(من أحب أن يسمع القرآن غصًا كما أنزل فليسمعه من
ابن أم عبد ، ومن أحب أن يقرأ القرآن غصًا كما أنزل
فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) .

كان صوت عبد الله بن مسعود نديًا يملأ القلوب
خشوعًا ، ويحكى لنا عبد الله أن الرسول قال له : (اقرأ
على) قلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك نزل ؟! ، قل :
نعم . فقرأت سورة النسل حتى أتيت إلى هذه الآية :

﴿كَفَيْتَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء : 41]

قل عليه السلام : حَسْبُكَ الآن فالتفتُ إليه فإذا عينه
تذرفان الدمع) .

وال جانب إجادته لقراءة القرآن .. كان عبدُ الله بن
مسعود قصيرًا ، قويُّ الحجّة ، واضحُ البيان ، قويُّ العبارة ..
خطب النبي يومًا خطبةً وجيزةً ثم قال : قُمْ يَا أَبَا بَكْر ..

فقام فَنَظَبَ دون النبي عليه السلام .. فقل : قُمْ يا عمر :
فانخطب .. فخطب عمر فقصر .. ثم قل قم يا فلان
فانخطب ، إلى أن قل : قم يا بن أم عبد (يعنى عبد الله بن
مسعود) فقام عبد الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قل :

"أيها الناس إن الله ربنا .. وإن الإسلام ديننا وإن هذا
نبينا .. وأشار بيده إلى النبي - رضيما ما رضى الله لنا
ورسوله والسلام عليكم" فقل الرسول عليه السلام :
(أصاب ابن أم عبد ، وصلح ابن أم عبد) .

أحب النبي صاحبه عبد الله بن مسعود وأولاه ثقة كبيرة ،
وقربه منه حتى أنه كان يسمح له بطرق بابه وقتما شاء ..
ليلا ، أو نهلا .. ولازم (ابن مسعود) النبي ، وشهد معه
كل أسفاره ، وكل غزواته ، وكان له فيها بطولات عظيمة ..
كان عبد الله فتى متعلما .. نال حل الجسم .. ضامرا
الأطراف ، لاجلة له ولا عشيرة ، لكنه كان أمينا .. مؤتمنا ..
وهذه هي ملامح الرجولة المبكرة ، والشجاعة ، والتفاني
السوية .. وهكذا كان عبد الله بعد إسلامه .. فرفعه

الإسلام، ومنحه شرفاً ، وعِلماً ووضعه في مقدمة صحابة
رسول الله ..

لقد تنبأ له الرسول - عليه الصلاة والسلام - يوماً بأنه
سيكون (غلاماً معلماً) .. وقد كان ، فقد علمه ربه ، وربه
النبي فلتصحى فقيه الأمة ، وعميد حفظ القرآن ..

كان قبل إسلامه غلاماً منزولاً يشعر أن فقره يضعه في
ظل الحيلة ، وعلى هامشها ، لكنه أصبح بعد إسلامه جريئاً
في الحق يرفع صوته في داخل الكعبة بآيات القرآن على
مسمع من كفار قريش .. ولما لا .. وقد اقتنع بأنه كلام الله
الذي أنزل على نبيه ، ورسوله ١٩ ..

لقد أثابه الله على هذه الشجاعة ، والمخاطرة ، وأعزه
بالقرآن ، وميزه بحفظه حتى أنه قل عن نفسه : (أخذت من
قَم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة لا ينازعني
فيها أحد) .

كان (لابن مسعود) مكانة خاصة في نفس النبي .. كان

يحبّه وثقّ في تقواه حتى أنه قلّ عليه السلام :

"اهلوا قلتي عمار (عمار بن ياسر) وتمسكوا بعهد
(ابن أمّ عبد) (عبد الله بن مسعود) .

وهو القائل : "رضيت لأمتي ما رضى لها ابن أم عبد
وسخطت لأمتي ما سخط لها ابن أم عبد" .

بعد وفاة النبي الكريم عاش عبد الله (موسوعة) تحفظُ
كلّ ما نزلَ على النبي من وحى ، وكل ما قاله من حديث ،
أو أتاه من فعل ، وكان مرجع الجميع في أي خلاف بينهم .
وقد أولاه الخلفاء - أبو بكر ، وعمر وعثمان - رعايةً
خاصةً ، عملاً بوصية النبي ، واقتداءً بسلوكه إلا أنّ عبد الله
بن مسعود كان يخاف أن يحدث عن النبي بعد وفاته .. وكان
إذا حرّك شفّته ليقول : (سمعت رسول الله يقول) أخذته
الرعدة والاضطراب ، وجرى عرقه وتلعثم .. وينتهي حديثه
قائلاً : أو نحو ذلك .. أو شبه ذا .

فقد كان يخشى أن يتسبى حرّفاً ، أو لفظاً .. أو يضع كلمةً

مكان أخرى .. لقد كان حبه ، وإجلاله ، وتقديره للنبي ليس له منى ..

ومع هذا الدور العظيم في حفظ كتاب الله وسنة نبيه .. كان (الابن مسعود) دوراً هاماً في إرساء دعائم دولة الإسلام بعد أن اتسعت مساحتها وخضعت لها كثير من البلدان . وكان الخلفاء الراشدون يواصلون إلى (ابن مسعود) المهام الكبرى خاصة فيما يتعلق بالفتوى والقضاء وأمور بيت المال ..

وفي خطابه لأهل الكوفة يقول (الفاروق عمر) رضي الله عنه :

(إنني قد بعثت (عثمراً بن ياسر) أميراً و(عبد الله بن مسعود) معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي) ..

هكذا كان (عمر) رضى الله عنه علوفاً بقدر (عبد الله بن مسعود) واثقاً فى علمه وحسن تفقهه فى الدين .

وقضى (ابن مسعود) سنواتٍ طويلةً فى الكوفة ..
قاضياً .. ومفتياً .. وقائماً على بيت مال المسلمين .. تغير فى
أثناء وجوده ستةٌ من الولاة .. يستشيرونه وينزلون على
رأيه .. لم لا .. وهم يعلمون أنه أحد المبشرين بالجنة .

الم يقل عليه صلوات الله وسلامه :

"لرجلاً عبد الله فى الميزان أثقل من (أحد) " .

نعم قال رسول الله ذلك عندما ضحك بعض الصحابة
من لحافة ساقيه ..

يروى أحد الصحابة : كنا عند (على بن أبى طالب)
رضى الله عنه فذكر بعض قول (ابن مسعود) وأثنى القوم
عليه . ثم قالوا: يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن
خلقاً ولا أرفق تعليماً ، ولا أحسن مجالسةً ولا أشد ورعاً
من (عبد الله بن مسعود) .

فقال كرم الله وجهه : ناشدتكم الله إنه لصدق من
قلوبكم ..؟

قالوا : نعم .

فقال : (اللهم إني أشهدك ، اللهم إني أقول فيه مثل ما
قالوا أو أفضل) .

أما (أبو موسى الأشعري) المعروف بورعه وتقواه وعلمه
فكان يطلب من الناس ألا يسألوه (عن شيء ما دام هذا
الخير بين أظهركم) ويعنى (عبد الله بن مسعود) .

هذا هو (عبد الله بن مسعود) .. الذى بشره النبى
الكريم بالجنة ضيماً من بشر ..

فقد كان وثيق اليقين ، كبير القلب ..

عظيم النفس ..

رجل فتح الله عليه بنور الهدى ..

وصاحب النبى وأخذ عنه ..

وكان القرآن هو دستوره الوحيد ..

ومن بين كلماته الجامعة :

"خيرُ الغنى غنى النفس .. وخيرُ الزادِ التقوى ، وشرُّ
العمى عمى القلب ، و أعظمُ الخطايا الكذبُ ، وشرُّ
المكاسب الربا ، وشرُّ المأكَل ملأ اليتيم ، ومن يَعْفُ يَعْفُ
الله عنه ومن يَعْفِرْ يَغْفِرِ الله له" .

ومن أقواله التى تعكس حبه للعلم وإيمانه بأهميته :

(عليكم بالعلم قبل أن يُقبض وقبضه ذهابُ أهله ، فإن
أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه ، وسجدون أقواما يزعمون
أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم
فعليكم بالعلم وإياكم والتعجل وإياكم والتنطع) .

أما خيرة (عبد الله بن مسعود) بالحيلة وبطبيعة البشر
فتعكسها هذه المقولة الحكيمة التى لحتم بها حديثنا عن
هذا الصحابى العظيم .

يقول :

(إذا رأيتم أحاكم قارَفَ ذنبا فلا تكونوا أعوانا للشيطان

عليه فتقولوا : اللهم اخزه .. اللهم العنه ، ولكن سلوا الله
العافية ، فإننا أصحاب عمدٍ عليه السلام كنا لا نقول في
الحديث شيئاً حتى نعلم علام يموت ؟..

فإن خُتِمَ له بخيرٍ عَلِمْنَا أنه أصاب خيراً وإن خُتِمَ له بشرٌ
خَفِئْنَا عليه) .

عليك رضوانُ الله ورحمته يا مَنْ كُنْتَ أَوَّلَ مجاهرٍ بالقرآنِ
بعد رسولِ الله .